

ما قبل التاريخ في المشرق

د. سلطان محسن
جامعة دمشق

ما قبل التاريخ في المشرق مؤتمر علمي عقد في المعهد الشرقي التابع لجامعة ليون الثانية في فرنسا، في الفترة الواقعة بين ٣٠ أيار و ٤ حزيران عام ١٩٨٨ ، وهو المؤتمر الثاني من نوعه حول هذا الموضوع ، ويكمل في أبحاثه المؤتمر الاول الذي عقد في المكان نفسه بين ١٠ و ١٤ حزيران ١٩٨٠ ، وكان موضوعه الرئيسي هو « تأريخ مواقع عصور ما قبل التاريخ وانتشارها منذ وصول الانسان الى المشرق وحتى نهاية الالف الرابع ق.م » أي حتى انتهاء عصور ما قبل التاريخ وابتداء العصور التاريخية القديمة . وقد توصل المشاركون في المؤتمر الاول الى وضع اطار زمني وحضاري يبين الخطوط العريضة لتاريخ مجتمعات ما قبل التاريخ في المشرق ، وعلى امتداد زمن يزيد على المليون سنة * .

حضرت لهذا المؤتمر وعقدته جامعة ليون الثانية ، « المعهد الشرقي ، والمركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي C. N. R. S. » وكانت لجنة الاعداد والتنظيم مؤلفة من : فرانسيس أور * ، المتخصص الكبير في عصور ما قبل التاريخ في المشرق الادنى ، وبول ستانلافيل ، الجيومورفولوجي ومدير بحوث في المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي ، واولففيه اورانتش استاذ ما قبل التاريخ في جامعة ليون الثانية ، وماري كلير كوفان المتخصصة في عصور ما قبل التاريخ ومديرة بحوث في المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي .

Préhistoire du Levant, C. N. R. S. Paris 1981. *

F. Hours, P. Sanlaville, O. Oranche, M. C. Couvin. **

ولم يتسن للباحث الاب أور ، عضو اللجنة المنظمة للمؤتمر ، حضور هذه التظاهرة العلمية الهامة ، اذ توفي في ١٧ نيسان ١٩٨٧ ، فقرر زملاؤه اعتبار المؤتمر تكريما له . ويعد الاب أور بحق أكبر الباحثين في عصور ما قبل التاريخ في المشرق ، وقد عمل في هذا الميدان أكثر من ثلاثين عاما وله دراسات غزيرة لا يتسع المجال لذكرها . وقد أحدثت وفاته المبكرة وهو في أوج عطائه فراغا كبيرا .

حضر مؤتمر ليون مائة باحث ، من مختلف البلدان ، يعملون في دراسة عصور ما قبل التاريخ المشرقية ، قدم خمسون منهم بحوثا متنوعة ، نذكر منهم على سبيل المثال اضافة الى اللجنة المنظمة : جاك كوفان ، جاك بيزانسون ، لورين كوبلاند ، اندرو غارارد ، تاكيرو أكازاوا ، برنار قاندر ميرش ، ستيفان كوزلفسكي ، وغيرهم * وشارك كاتب هذا العرض ببحث تناول مواقع ما قبل التاريخ في منطقة عفرين شمال سورية . كان الحضور العربي ضئيلا اقتصر على جامعة دمشق ، وجامعة اليرموك في الاردن ممثلة بالدكتور مجاهد المحيسن اضافة الى بعض الطلاب العرب الذين يدرسون في فرنسا .

كان الموضوع الرئيسي للمؤتمر هو « عملية التحول الحضاري منذ البداية وحتى الالف الرابع ق.م » . وقد قسمت الدراسات المقدمة الى عدة موضوعات فرعية تناول كل منها فترة محددة من عصور ما قبل التاريخ . وقدم المشاركون أبحاثهم في اطار الموضوع الذي يعنيهم ، مرفقة بعرض الشرائح المصورة اللازمة (سلايد) مما جعلها أكثر حيوية وتعبيرا . وكانت الموضوعات تتلى تباعا (خلال ١٥ - ٢٠ دقيقة للموضوع الواحد) ، يعقبها نقاش خصص له ٦٠ - ٩٠ دقيقة . وكان تنظيم المؤتمر دقيقا ، ولفته الفرنسية وان كانت الانكليزية قد طفت في أحوال كثيرة ، رافقته زيارات ميدانية لبعض المواقع الفرنسية ودعوات مختلفة ، وقدمت فيه بحوث كثيرة يستحق كل منها أن يكون مادة مؤتمر مستقل ، عرضت في جلسات خصص كل منها بموضوع محدد ، كان لي شرف رئاسة أحدها ، ملأت ستة أيام مكثفة ، وتناول فيها الباحثون المكتشفات والأفكار والنظريات الجديدة .

افتتح المؤتمر في الساعة التاسعة من صباح يوم الاثنين ٣٠/٥ بحضور ممثلين عن المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي ووزارة التعليم العالي والجامعي . ثم توالى جلسات العمل .

كان موضوع الجلسة الاولى « الزمن الرابع » Quaternaire ، وقد قدمت فيها بحوث ذات طابع جيولوجي وجيومورفولوجي وبالنتولوجي ، تناولت التشكلات الجيولوجية الرباعية في المشرق وبخاصة الشواطئ البحرية والاسرة النهرية القديمة ، وعلاقتها بآثار انسان ما قبل التاريخ ، ودورها في دقة تحديد العمر الزمني لتلك الآثار . وتطرقت أيضا الى التبدلات المناخية التي حصلت في الزمن الرابع ، والبيئة

J. Couvin, J. Besanson, L. Copeland, A. Garrard, T. Akozawa, (*)
B. Vandermeersch. S Kozlowski.

الجغرافية القديمة ونوعية الحيوانات والنباتات التي عاشت فيها ، كالفيل ووحيد القرن والحصان والغزال والدب ونباتات اللوز والبطم والزعرور . وأشارت البحوث الى أهمية الشواطئ البحرية والاسرة النهرية الرباعية في تأريخ الادوات الحجرية، وأن منطقة الشرق الأدنى عرفت عدة عصور مناخية مطيرة فصلتها عصور جافة تركت كلها آثارها في الطبيعة ، على شواطئ البحر المتوسط وفي وديان الانهار الكبرى كالفرات والعاصي والاردن . ورافقت التقلبات المناخية تبدلات هامة في البيئة فانقرضت أنواع حيوانية ونباتية وظهرت أنواع أخرى جديدة . وكان لكل ذلك الاثر الاكبر على الانسان وحضارته . وحاول بعض المحاضرين الربط بين التشكلات الرباعية في الاناضول وبلاد الشام بهدف ايجاد اطار رباعي عام للمنطقة يفيد من الابحاث الجديدة التي تجرى في حوض الفرات في تركيا وفي منطقة الازرق في الاردن .

وخصت الجلسة الثانية للعصر الحجري القديم الأدنى Paléolithique Inferieur

(نحو ١٠٠.٠٠٠ - ١٠.٠٠٠ سنة خلت) وعرض فيها آخر المكتشفات ، وبخاصة تلك التي أتت من الاردن والاناضول ، اضافة الى اعادة النظر في بعض المواقع الشهيرة المعروفة مثل العبيدية في فلسطين واللطامنة في سورية . وقد اقترح البعض عمرا مبكرا جدا للعبيدية وهو ١٤ مليون سنة ، استنادا الى تحليل لانواع الحيوانات التي وجدت في ذلك الموقع ، مما اثار نقاشا وطرح ضرورة اعادة النظر في تاريخ وصول الانسان الى المشرق ، على ضوء تأريخ العبيدية الجديد ، الذي يحمل على الاعتقاد بأن الانسان الاول قد وصل الى الشرق الأدنى وبلاد الشام منذ نحو مليون ونصف مليون سنة خلت، أي أقدم بنحو نصف مليون سنة مما كان يظن . وقد أكدنا أثناء الجلسة بأننا اذا اعتبرنا تأريخ العبيدية مقبولا ، وهو تأريخ غير مطلق وانما نسبي اعتمد فقط على البقايا الحيوانية التي ليست لها دائما دلالة زمنية قاطعة ، فان ذلك يجب أن يؤدي الى اعادة النظر بتأريخ المواقع السورية المشابهة للعبيدية مثل ست مرخو في حوض نهر الكبير الشمالي في محافظة اللاذقية ، لان ست مرخو معاصرة للعبيدية ، وهناك تشابه واضح في أنماط الادوات الحجرية بين الموقعين السوري والفلسطيني .

وطرحت في الجلسة العلاقة بين مختلف الصناعات الحجرية في الباليوليت الأدنى بمراحله المتعددة ، الطبيعية المناخية والبيئية لكل مرحلة، وذلك من خلال توزيع المواقع في مختلف المناطق الجغرافية . فقد لوحظ مثلا أن المواقع الاثرية العائدة الى المرحلة المسماة « الاشولي الأعلى » تنتشر في كل المناطق الجغرافية في المشرق مما يدل على سيادة مناخ مناسب مطير وفر امكانية العيش للناس حيثما كان . في حين ظهر أن المواقع العائدة الى المرحلة اللاحقة المسماة « الاشولي الأعلى المتطور » تتركز في الواحات والوديان وهذا يشير الى قيام مناخ جاف دفع الناس الى التجمع في تلك المناطق التي حافظت على ثرواتها المائية .

وخصصت الجلسة الثالثة لموضوع العصر الحجري القديم الاوسط ،

أي الباليوليت الاوسط Paleolithique Moyen الذي يغطي الفترة الواقعة بين ١٠٠.٠٠٠ - ٣٥.٠٠٠ سنة خلت . وقد قدمت فيها بحوث أحدثت نقاشا مثيرا حول النوع البشري الذي عاش في المشرق في ذلك العصر ، أي انسان النياندرتال ، وعلاقته بالانواع الاخرى التي سبقتة أو تبعتها . فقد ذكرت احدى الدراسات (فاندرميرش) أن الانسان العاقل قد أُرِخ له في موقع جبل قفزة في فلسطين بنحو ٩٠ ألف سنة خلت ، وأن النياندرتال قد أُرِخ في موقع الكبارا في فلسطين أيضا على نحو ٦٠ ألف سنة مضت ، مما يحمل على الاعتقاد بأن الانسان العاقل في بلاد الشام قد سبق النياندرتال وهو أقدم منه ولم يكن متطورا عنه كما كان يظن حتى الان ، وانما تطور مباشرة من الهومو أركتوس Homo - Erectus الذي وجدت بقاياه في فلسطين ، وأن النياندرتال الفلسطيني قد أتى من اوروبا ، مدفوعا بتبدلات مناخية حادة ، وأنه تعايش وتعاصر مع الانسان العاقل في المشرق . وقد شكل ذلك انعطافا حادا في معارفنا الحالية التي تؤرخ للانسان العاقل بنحو ٤٠.٠٠٠ - ٣٥.٠٠٠ سنة فقط وتعتبره متطورا ، في فلسطين على الاقل ، عن النياندرتال . وكان لهذا الموضوع جانب آخر ليس اقل أهمية ، ألا وهو طبيعة العلاقة بين العرق والحضارة ، وهل يجوز الربط بين الاثنين في عصور ما قبل التاريخ ، لان الادوات الحجرية المسماة « المستيرية » التي كان يعتقد أنها من صنع النياندرتال تبين أنها من انتاج الانسان العاقل أيضا . وهكذا نرى أن هذين النوعين البشريين المختلفين قد عرفا حضارة واحدة ، مما يقرب رأسا على عقب مقولة التوافق بين النوع البشري وبين الحضارة ، التي أخذ بها حتى الان أثناء دراسات العصور الحجرية ، ويدعو الى الظن بأن أنواعا انسانية مختلفة قد مارست حضارات متشابهة . ومهما يكن فاننا لا زلنا بحاجة الى أبحاث متواصلة حتى نستطيع البت في تلك الامور الخطيرة . كما عاجلت بحوث أخرى تقنيات تصنيع الادوات الحجرية في الباليوليت الاوسط وتطور تلك الادوات ، اضافة الى المكتشفات الجديدة وبخاصة التي أتت من منطقة وادي عفرين حيث كشف المسح الذي قام به كل من عادل عبد السلام وسلطان محيسن من جامعة دمشق ، وتاكرو اكاواوا من جامعة طوكيو ، عن عشرات المواقع ذات المعطيات الاثرية والجيولوجية والمستحاثية الهامة . ويتوقع أن تؤدي التنقيبات المزمع القيام بها في المستقبل الى اثاره العديد من القضايا الهامة حول تلك المرحلة من عصور ما قبل التاريخ .

كما تناولت البحوث أيضا مكتشفات جديدة أخرى أتت من بقية بلدان الشرق الادنى كتركيا والاردن وفلسطين .

وخصصت الجلسة الرابعة للعصر الحجري القديم الاعلى ، أي الباليوليت الاعلى

Paleolithique Superieur بين ٣٥.٠٠٠ - ١٢.٠٠٠ سنة ق.م . وقد ركزت البحوث

المقدمة فيها على العلاقة بين هذا العصر والعصر الذي سبقه ، والذي تلاه ، ولا سيما المرحلة الانتقالية بين الباليوليت الاوسط والباليوليت الاعلى ، وفيما اذا كنا نستطيع الاستمرار في اعتبار ما يسمى « حضارة الاميرة » لتلك المرحلة الانتقالية . اذ ان الاكتشافات الاخيرة قد اثبتت ان الادوات الحجرية من نمط « الاميرة » قد ظهرت قبل هذا العصر ومنذ الباليوليت الادنى . كما نوقشت المراحل الحضارية الاخرى في الباليوليت الاعلى وبخاصة ما سمي « الاورينياسي المشرقي » وهي الحضارة الرئيسية التي لا زالت مجهولة الاصل والانتشار . لكن الاتجاه العام الذي طرحتة الدراسات يدل على ان الاورينياسيين الذين اشتهروا بصناعة الحراب الطويلة وكانوا من نوع الانسان العاقل ، هم من أصل مشرقي ، انتقلوا الى اوروبا ليصلوا هناك الى قمة تطورهم ويمهدوا للحضارات الفنية ، كالسولوترية والمجدلانية ، ذات المستوى الفني والتقني والاجتماعي الرفيع . وكان الجديد والهام بين أبحاث هذا الموضوع هو الاكتشافات الاخيرة التي أتت من منطقة الكوم في البادية السورية وأكدت أن سورية لم تكن مهجورة في هذا العصر خلافا لما طرح سابقا ، وأن المعلومات التي كنا نملكها عن مجتمعات الباليوليت الاعلى السوري لم تكن نهائية ، وما لبث البحث الاثري أن بدلها ليثبت الوجود البشري الهام في تلك المرحلة أيضا ، مما يفسح المجال أمام مقارنات وأحكام جديدة تخالف الاحكام السابقة .

وعقدت الجلسة الخامسة : على امتداد يوم الاربعاء ١٦/٦ وكان موضوعها **عصر الباليوليت الاخير** Epipaleolithic أو الميزوليت Mezolithique كما يسميه البعض ، وهو العصر الانتقالي بين العصر الحجري القديم (الباليوليت) والعصر الحجري الحديث (النيوليت) ١٢٠٠٠ - ٨٠٠٠ سنة ق.م . وقد عالجت البحوث أصل العلاقة وطبيعتها بين المجتمعات التي عاشت في ذلك العصر وهي المجتمعات المسماة الكباريه ثم الكباريه الهندسية وأخيرا النطوفية ، وقد عدت هذه الحضارات مراحل تطورية متصلة شكلت كل منها درجة أعلى وأكثر تنوعا على طريق تطور مجتمعات ما قبل التاريخ في المشرق . كما عرضت مكتشفات جديدة أتت بخاصة من الاردن مثل مواقع رأس النقب والقويرة ووادي الحمة وخرانه والجيلات وغيرها وكلها أعطت آثارا كبارية ونطوفية غنية ومنوعة تضاهي ما عثر عليه حتى الان من فلسطين وسورية الشمالية . وتناولت بعض التقارير الاعمال الجديدة التي تجري في مواقع فلسطينية قديمة مثل أريحا والتنقيبات في المواقع السورية مثل الندوية . وتوصل النقاش الى أن الحضارات الباليوليتية الاخيرة في المشرق كانت متشابهة ومنفتحة على بعضها الى درجة كبيرة وأكثر مما كان يظن البعض ، وأنه من غير الصحيح مثلا التحدث عن النطوفي في فلسطين فقط دون النظر بعين الاعتبار الى بقية بلدان الشام لانه ثبت أن النطوفيين قد انتشروا ومنذ الالف العاشر ق.م على مساحة واسعة من المشرق ، امتدت من وادي النيل في الغرب وحتى وادي الفرات

في الشرق ، وانهم يمثلون تجانسا حضاريا ، وربما عرقيا ، واحدا بالرغم من بعض الاختلاف حسب المناطق . فالآثار النطوفية الدالة كالبنايا والمقابر والفنون والادوات الثقيلة والادوات العظمية وغيرها أتت من سورية ولبنان والاردن أيضا .

وملأت الجلسة السادسة : طيلة يوم الخميس ٦/٢ وتناولت الدراسات المقدمة فيها عصر النيوليت ما قبل الفخار آ، Pre - Pottery Neolithic A. أي العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار آ (٨٠٠٠ - ٧٦٠٠ ق.م) . فعرضت الاكتشافات الجديدة التي أتت بخاصة من العراق من مواقع قرمز ديريه ونمروك العائدة لهذا العصر وتعد تلك الاكتشافات ذات أهمية بالغة لانها تملأ الفراغ القائم في تلك المرحلة في بلاد الرافدين ، كما أنها تثبت ظهور المجتمعات الزراعية الباكرة هناك ، تلك المجتمعات ذات الصفات العامة المشتركة مع مثيلاتها في بلاد الشام ، كما تجلى ذلك من خلال آثار الابنية والادوات والفنون . وبذلك تصبح بلاد الرافدين أيضا من أهم مصادر المعلومات عن مجتمعات العصر الحجري الحديث الذي حصل فيه الانعطاف الاكبر أثرا في تاريخ البشرية وهو الانتقال من حياة الصيد والالتقاط والتنقل الى الاستقرار وابتكار الزراعة والتدجين . وقد جرى في الجلسة نقاش مسهب وشيق حول الاصل الاول للزراعة ، وأين ظهرت لأول مرة وكيف انتشرت في العالم ، وتباينت الآراء ، فمن قائل أن الزراعة ظهرت في منطقة واحدة هي المشرق القديم ومنه انتشرت الى بقية أنحاء العالم ، الى آخر يقول بوجود عدة مناطق في عدة قارات نشأت فيها الزراعة بشكل مستقل . وقد طرحنا نحن حوضه دمشق كموطن أول للزراعة ، وذلك استنادا الى الدلائل التي أتت من تل أسود في تلك المنطقة والتي تثبت معرفة الزراعة منذ مطلع الالف الثامن ق.م . وقلنا بأنه من حوضه دمشق انتشرت الزراعة فيما بعد الى بقية البلدان المجاورة والى العالم . ومهما يكن فلقد ساد اتجاه عام بأن الزراعة قد نشأت في مكان ما من وادي الفرات أو الاردن أو غيره من بلاد الشام حيث عاشت الحبوب البرية ، القمح والشعير التي زرعت، الى جانب الحيوانات الوحشية (الماعز والغنم والبقر) التي دجنت أيضا . كما لفت النظر الى أن مجتمعات العصر الحجري الحديث الباكرة مارست، قبل الزراعة المنظمة ، نوعا من « الزراعة العفوية » وذلك من خلال الاستفادة المكثفة من الحبوب البرية بعد أن ضببط طرق وأوقات نموها ونضوجها وحصادها .

وملأت الجلسة السابعة : يوم الجمعة ٦/٣ وعالجت عصر النيوليت ما قبل الفخار ب، Pre - Pottery Neolithic B. أي العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار ب، (٧٦٠٠ - ٦٠٠٠) وكانت المفاجأة الاهم هنا هي الاكتشافات المثيرة من الاناضول في تركيا من موقع نفالاكوري Nevala Cori ، اذ كشف عن مستوطنة كبيرة فيها اثار بناء وأدوات وتماثيل ونصب ضخمة ورائعة لم يعثر على مثيل لها في أي موقع معاصر حتى

الان ، مما اذهل الحاضرين ودفع الجميع الى التفكير بضرورة اعادة النظر في احكامنا حول مجتمعات هذا العصر لان هذه المكتشفات الاناضولية ، تذكرنا من جهة أولى بمكتشفات اريحا وأسوارها وأبراجها الدفاعية ، وتشير من جهة ثانية الى اننا أمام مستوطنة منظمة ترقى الى مستوى « الدولة » التي قامت على رأسها سلطة قوية اشرفت على شؤون الناس منذ الالف الثامن والسابع ق.م . وهذا يعتبر تحولا جذريا في معلوماتنا عن المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لمجتمعات عصور ما قبل التاريخ ، كما عرضت في هذه الجلسة اكتشافات هامة اخرى أتت من الاردن من مواقع عين الغزال والبسطة التي قدمت دلائل مادية وفنية تجعل منها مصادر مركزية في فهم التطور الحضاري في المشرق العربي القديم . وتم تناول الاعمال الجارية في بعض المواقع السورية مثل الكوم ، حيث ازدهرت قرية زراعية هامة ، اضافة الى عرض مكتشفات فلسطينية ورافدية .

وجرى نقاش مطول حول علاقات مجتمعات هذا العصر المشرقية مع بعضها ، انتهت الى القول بوجود وحدة حضارية عميقة وشاملة ربطت بين ارجاء المشرق العربي القديم ، والاناضول ضمنا ، وبالرغم من أن هذه الوحدة لم تكن دائما واضحة بشكل مباشر ، ولها المظهر نفسه ، لكن جوهرها كان واحدا وعبرت عن نفسها بصيغ مختلفة في المجالات الاقتصادية والروحية ، أو غيرها .

اضافة الى الدراسات ذات الطابع الاثري البحث ، عرضت في جلسات المؤتمر بحوث تطرقت الى العلوم المساعدة لعلم آثار ما قبل التاريخ كالجيو لوجيا ، والبالنتولوجيا وطرق التأريخ الفيزيائية أو غيرها ومناهج البحث وفنونه وأدواته ودراسات تقنية وحسابية وغيرها من المواضيع المكملة لموضوع المؤتمر الرئيسي .

وفي صباح يوم السبت ٦/٤ عقدت الجلسة الختامية ، وقدم فيها كل من فاندرميرش وجاك كوفان عرضا شاملا لنتائج أعمال المؤتمر من خلال تبيان ما تم انجازه وما لم ينجز بعد ، والاسئلة التي اجاب عليها المؤتمرين ، والموضوعات التي ما زالت بانتظار المزيد من الابحاث ، وما هو الواقع الراهن لمعرفتنا بمجتمعات عصور ما قبل التاريخ ، وانصرف المشاركون في المؤتمر مزودين بافكار ومعلومات جديدة انارت أمامهم طريق البحث الطويل .

وستنشر وقائع المؤتمر عام ١٩٨٩ في عدد خاص من مجلة الشرق القديم Paleorient ، التي يصدرها المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي .

